obeikandl.com

obeikandl.com

العصر الذى ظهر فيه عرابى

نحن الآن فى منتصف القرن التاسع عشر، وقد تولى سعيد باشا أريكة مصر سنة ١٨٥٤، وظل يتولاها إلى سنة ١٨٦٣، وامتاز عهده بنهضة وطنية ترجع إلى شخصيته ونفسيته، فلقد كان يميل بجوارحه إلى خير المصريين ورفاهيتهم، ويعمل على تحريرهم من نير المظالم التى كانوا يعانونها، ويشجعهم على تقلد المناصب العالية فى الجيش والإدارة، بعد أن كان معظمها وقفا على الترك والشراكسة فى هذا العصر بدأت شخصية أحمد عرابى فى الظهور، إذ نال رتبة ملازم فى الجيش سنة ١٨٥٨، ومن يومئذ أخذ يرتقى فى الرتب العسكرية.

فمن هو ذلك الضابط الذى بلغ مرتبة القيادة وعقد له الجيش بل عقدت له الأمة لواء الزعامة سنة ١٨٨١؟

نشأته الأولى

ولد أحمد عرابى فى ٣١ مارس سنة ١٨٤١ فى "هرية رزنة" وهى إحدى قرى مديرية الشرقية على مقربة من الزقازيق، وكان أبوه شيخ البلد، وهو من عائلة بدوية استوطنت تلك القرية فى عهد جد عرابى، ولما شب وترعرع، علمه أبوه مبادئ القراءة والكتابة، وعهد إلى رجل يدعى ميخائيل غطاس كان صرافا فى البلد تربيته على الكتابة والأعمال الحسابية، ومكث يتمرن على يديه نحو خمس سنوات، ثم أرسله والده إلى الجامع الأزهر سنة ١٨٤٩ لطلب العلم، فمكث فيه أربع سنوات، اتم فى خلالها استظهار القرآن الكريم وتلقى شيئا من اللغة والفقه والتفسير.

وبعد أن عاد إلى بلده، دون أن يتم دراسته فى الأزهر، التحق بالعسكرية فى ٦ ديسمبر سنة ١٨٥٤ جنديا بسيطا "نفرا" تنفيذا لما قرره سعيد باشا من تجنيد أولاد العمد والمشايخ، ولاجادته القراءة والكتابة والحساب عين كاتبا بدرجة "بلوك أمين" بالأورطة الرابعة من ألاى المشاة الأول

وفى سنة ١٨٥٨ رقى إلى مرتبة الضباط، وذلك حين اعتزم سعيد باشا ترقية المصريين فى الجيش، فنال فى تلك السنة رتبة ملازم تحت السلاح، وهو بعد فى صاغ سنة ١٨٥٩، ثم رتبة بكباشى سنة ١٨٦٠، ثم صار قائم مقام فى سبتمبر سنة ١٨٦٠، وقد حظى برضا سعيد باشا ورافقه فى زيارته للمدينة المنورة يا ورا له سنة ١٨٦٠، وكان لهذه الزيارة أثر كبير فى نفسه، إذ أنس من سعيد عطفا كبيرا على طبقة الفلاحين، ثم بدأ لسعيد أن ينقص عدد الجيش، فألغى بعض الفرق وفصل ضباطها من الخدمة، ومنهم أحمد عرابى، ثم أمر بإعادتهم قبيل وفاته، وعاد عرابى إلى سابق رتبته.

من هذا البيان يتضح أن ليس فى نشأة عرابى شىء يستوقف النظر، بل هى نشأة عادية لرجل عادى، لم يتميز فى ماضيه بالبطولة، ولم يخض غمار المعارك والحروب، كان ضابطا من تحت السلاح، ونال مرتبة الضباط لأن سعيد باشا وضع قاعدة إمكان ترقية الضباط من بين أفراد الجند رغبة منه فى إكثار عددهم. ولا غبار على هذه النشأة فى شىء، وليس ثمة ما يمنع صاحبها من أن يقوم بدور هام فى حياة البلاد السياسية والقومية.

متى وكيف بدأت دعوته الوطنية؟

يبدو من التأمل فى حياة عرابى أن دعوته الوطنية قد بدأت تخالجه فى عهد سعيد باشا، فقد سمعه يلقى خطبة مخاطبا الحاضرين من العلماء

والرؤساء الروحانيين وأفراد الأسرة الحاكمة وكبار الحكومة والملكيين والعسكريين:

"أيها الأخوان.. إنى نظرت فى أحوال هذا الشعب المصرى من حيث التاريخ فوجدته مظلوما مستعبدا لغيره من أمم الأرض، فقد توالت عليه دول ظالمة له كثيرا...

"وحيث أنى اعتبر نفسى مصريا فوجب على أن أربى أبناء هذا الشعب وإهذابه تهذيبا، حتى أجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة، ويستغنى بنفسه عن الأجانب، وقد وطدت على إبراز هذا الرأى من الفكر إلى العمل"

يقول عرابى تعليقا على هذه هذه الخطبة إنه لما انتهى سعيد باشا من ألقائها خرج المدعوون من الأمراء والعظماء غاضبين خنقين، مدهوشيين مما سمعوا، وأما المصريون فخرجوا ووجوهم تتهلل فرحا واستبشارا، ويقول أنه اعتبر هذه الخطبة أول حجر فى أساس مبدأ "مصر للمصريين".

ولاشك أن خطبة سعيد باشا لم تصادف فى نفس عرابى موضع ما يوافق ميولها واتجاهاتها.

على أن دعوته الوطنية لم تنضج إلا فى عهد الخديو إسماعيل، ذلك أنه حين خلف سعيد باشا فى ولاية الحكم فقد عرابى عطف ولى الأمر الجديد، إذ لم يكن إسماعيل يأخذ بسنة سلفه فى العطف على الضباط الوطنيين فعادت الحظوة فى الجيش إلى الضباط الشراكسة، فكان ذلك من أسباب تدمر عرابى واتجاه أفكاره إلى المطالبة بحقوق الضباط الوطنيين.

ووقع له حادث فى أوائل عهد إسماعيل كان له أثر كبير فى اتجاه أفكاره تكوين دعوته الوطنية، فقد وقعت خصومة بينه وبين اللواء خسرو باشا الشركسى أدت إلى تقديمه إلى مجلس عسكرى والحكم عليه بالسجن واحدا وعشرين يوما، فاستأنف عرابى هذا الحكم أمام المجلس العسكرى الأعلى، فقضى بإلغاء الحكم الإبتدائى، وحدث خلاف بسبب هذا الحكم بين وزير الحربية وقتئذ - اسماعيل سليم باشا - ورئيس المجلس الأعلى، لأن الوزير كان يرغب فى تأييد الحكم الابتدائى، فسعى لدى الخديو إسماعيل فى فصل عرابى من الجيش، فتم له ما أراد، فأورثته هذا الحادثة بغضا شديدا للشراكسة.

ورفع ظلامته من هذا القرار إلى الخديو إسماعيل، وظلت بين النظر والإهمال ثلاث سنوات، وقد توسط له بعض الخيرين فالتحق بوظيفة فى دائرة الحلمية، وفى أثناء قيامه بهذه الوظيفة تزوج من كريمة مرضعة الأمير الهامى باشا وهى أخت حرم الخديو توفيق من الرضاعة، وتوصل بذلك إلى استصدار أمر من الخديو إسماعيل بالعفو عنه وإعادته إلى الجيش برتبته العسكرية، ولكنه حرم مرتبة مدة فصله، فتأصلت فى نفسه روح الكره لرؤساء الجيش من الشراكسة والترك الذين كانوا سببا فى تأخير ترقية الضباط المصريين، ومنهم عرابى ذاته، فقد ظل تسعة عشر عاما برتبة قائم مقام، وهى الرتبة التى نالها فى عهد سعيد باشا، وشهيد عرابى محاباة الرؤساء لصغار الضباط الذين هم من أصل شركسى، ممن هم دونه مرتبة، حتى فاقوه فى الرتب العسكرية لا لسبب سوى أنهم من مماليك أو أبناء مماليك العائلة الخديوية.

من ذلك الحين أخذ عرابى يبث فى نفوس الضباط الوطنيين فكرة للباقته وفصاحته فى الكلام، واستناده إلى بعض الأحاديث الشريفة النبوية والحكم المأثورة، تأثير كبير فى نفوس الضباط اجتذبهم إليه ومال بهم إلى تلبية ندائه والاستماع لنصائحه والإقتناع بدعوته، ذكر محمود فهمى باشا أحد زعماء الثورة العرابية فى هذا الصدد، أن عرابى دخل سنة ١٨٧٥ أحد الآلايات المرابطة بناحية رشيد، فأخذ من ذلك الوقت فى تأليف قلوب الضباط ولائه وإظهار الأسف لحرمانهم من الترقيات فى حين أن الضباط الترك والشراكسة مغمرون بها.

فيمكن اعتبار سنة ١٨٥٧ بدء دعوة عرابى الوطنية، وكان ذلك فى عهد الخديو اسماعيل

ولما تولى توفيق باشا مسند الخديوية رقى عرابى إلى رتبة أمير ألاى فى يونيه سنة ١٨٧٩، وأصدر الخديو أمره بذلك وهو فى الإسكندرية، فتوجه عرابى إلى سراى رأس التين وقدم للخديو شكره مقرونا بعبارات الإخلاص والولاء، فشمله الخديو برعايته، وجعله ضمن يا ورانه، وعينه أمير ألاى لألاى المشاة الرابع الذى كان مركوه بالقاهرة.

ويعرف بألاى العباسية، وظل يشغل هذا المنصب حتى شبوب الثورة سنة ١٨٨١,

أسباب الثورة.

توصف ثورة عرابى بأنها ثورة عسكرية، وهذا صحيح لا مراء فيه إذا لاحظنا أن زعيمها والقائمين بها هم من ضباط الجيش، وأنها قامت وتحركت وفازت وقتا ما بقوه الجيش، ثم انتهت بهزيمته.

ولكن مما لا ريب فيه كذلك أنها ليست ثورة عسكرية فحسب، بل هى أيضا ثورة قومية، اشتركت فيها طبقات الأمة كافة، وإذا أردنا أن نستقصى أسبابها وجدناها على الأمة كافة، وإذا أردنا أن نستقصى أسبابها وجدناها على نوعين: أسباب خاصة أو مباشرة، وهى المرتبطة بطبقة الضباط والجند وموقفهم من الحكومة، وموقف الحكومة منهم، وأسباب عامة، وهى التى تتصل بحالة الشعب والعوامل التى دفعته إلى مناصرة الثورة وتأييدها والعوامل التى دفعته إلى مناصرة الثورة وتأييدها. وإذ كانت الأسباب الخاصة أقوى أثرا فى ظهورها وتطورها، فلنبدأ بالكلام عنها...

الأسباب المباشرة

ترجع هذه الأسباب إلى تذمر الضباط الوطنيين من سوء معاملة رؤسائهم، وخاصة عثمان رفقى باشا وزير الحربية فى عهد وزارة رياض باشا، التى شبت الثورة فى عهدها.

كان عثمان باشا رفقى قائدا شركسيا متعصبا لجنسه يتحيز للضباط الذين هم من أصل شركسى أو تركى أو أرناءوى، ويعمل على جمع زمام السلطة فى أيديهم، ويؤثرهم فى الترقيات والتعيينات على الوطنيين الذين كان ينظر إليهم بعين الزراية والبغض.

وكان عثمان رفقى من ناحية الكفاية جاهلا، قليل الإدراك والذكاء، عديم المواهب، قليل النظر فى العواقب، يمثل طبقة الرؤساء العسكريين المنحدرين من سلالة الترك والشراكسة الذين كانت لهم رياسة الجيش فى عهد إسماعيل وأوائل عهد توفيق. ولم يكن الضباط الوطنيون يجدون منهم فى ا لجملة انصافا، ولا مساواة، ولا معاملة حسنة، ولو أن إسماعيل درج على

سنة سعيد فى تشجيعه المصريين وترقيتهم فى المناصب العسكرية، لسادت روح المساواة فى الجيش. ولما هيأ أمثال عثمان رفقى السبل إلى الفتنة الشراكسة والترك على الوطنيين فى المعاملة، برغم ما بدا منهم من العجز والجهل وعدم الكفاية، مما ظهر أثر جليا فى الهزائم التى حاقت بالجيش سنة ١٨٥٧ - ١٨٧٦ فى حرب الحبشة. وعلى ما كان لهذه الهزائم من أسوأ الأثر فإن إسماعيل لم يحاسب أولئك القواد والضباط على ما وقع منهم من الإهمال والتقصير، وقيل إنه اعتزم محاكمة راتب باشا قائد هذه الحملة، ولكنه ما لبث أن رجع عن ذلك.. فقربه إليه وجعله من خاصة بطانته.

وهذا يدلك على شديد ميله إلى تلك الفئة.. فكانت لها الحظوة لديه، ثم لدى الخديو توفيق. ولو ظلت روح المساواة التى بنها سعيد فى الجيش سائدة فى عهد اسماعيل وتوفيق، لما قامت الثورة العرابية، لأن عرابى وصحبه لم يتوورا إلا حين طفح الكيل من محاباة أمثال عثمان باشا رفقى للترك والشراكسة، واضطهادهم للضباط والوطنيين. فعرابى وصحبه كانوا على حق فى المرحلة الأولى من الثورة، لأن الطبيعة البشرية مفطورة على كراهية الظلم والاضطهاد. ومن صفات النفس الإنسانية الثورة على المظالم. ولم تكن المظالم التى يشكو منها الضباط الوطنيون مقصورة على حرمانهم حقوقهم فى الترقى، بل كانوا كذلك هدفا لأشد ضروب العنت والإرهاق، إذ كان يكفى أن تلصق بأحد منهم تهمة ما، ولو لم تكن صحيحة، ليكون جزاؤه أن تنزع منه درجته أو يقصى عنه منصبه، أو ينفى إلى أقاصى السودان، وتصبح حياته عرضة للخطر لأوهى الأسباب

فالثورة العرابية كانت ثورة دفاع عن الحق، ودفاع عن الحياة. وليس من

ينكر ما كان عليه معظم الرؤساء الشراكسة والترك والارناءود من الغلظة والغطرسة، والزهو والخيلاء، والزراية بالوطنيين. . فإن هذه النزعات كانت فاشية فيهم، لا فى مصر وحدها، بل فى سائر بلاد السلطنة العثمانية القديمة، إذ كان العرب يعانون سوء معاملة الترك لهم واضطهادهم إياهم، وكانت هذه المعاملة من أسباب قيام الفتن والثورات فى السلطنة العثمانية، حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

رما دمنا فى صدد الأسباب المباشرة للثورة، فلا جدال فى أن ظهور أحمد عرابى كان فى مقدمة هاتيك الأسباب فهو الذى بث فى نفوس الضباط روح التضامن والاتحاد للمطالبة بحقوقهم المهضومة، وتقدم الصفوف لعرض مطالبهم جهارا على ولاة الأمور، وكانت هذه المطالب فاتحة الثورة، فهذه الجرأة كان لها أثر كبير فى ظهور الثورة، ولو لم يظهر عرابى، ولم تكن له تلك الشخصية التى اجتذبت إليه صفوف الضباط وبثت روح فيهم روح التضامن والإقدام، لكان محتملا ألا تظهر الثورة العرابية، أو لظهرت فى زمن آخر، وفى ظروف وملابسات أخرى، غير التى ظهرت فيها.

وهناك سبب من الأسباب المباشرة، يرجع إلى شخصية الخديو توفيق، فقد كان من أخص صفاته التردد والضعف، فلم يعالج الثورة فى مهدها بالحزم والشدة، أو بالعدل ورفع المظالم التى شكا منها الضباط، بل كان موقفه منها موقف التردد والتناقض، لا يستقر على رأى واحد، ولا على خطة واحدة. . بل كان يقابل حركة الضباط تارة باللين وآونه بالشدة، ثم يجنح إلى التراخى والضعف، ثم والى الشدة بعد الضعف. ولم يكن صريحا فى سياسته ولا فى تصرفاته، وكان له عدا ذلك من ظروفه العائلية ما يشجع عوامل التحريض

على الثورة، فإن إسماعيل كان لا يفتأ يسعى فى العودة إلى الحكم، ولا يرضيه أن يستقر ابنه على العرش.

ومن هنا جاء الظن بأن لإسماعيل ضلعا فى مؤامرة الضباط الشراكسة التى أججت نار الخلاف بين الخديو والعرابيين، كما سنذكره فى موضعه. وكذلك كان له من الأمير محمد عبد الحليم بن محمد على الكبير منافس قوى فى التطلع إلى مسند الخديوية. وكان وجود عبد الحليم فى الأستانة - مهبد الفتن والدسائس - واتصاله برجال المابين، عاملا قويا لتهيئة الأفكار لتوقع خلع توفيق، كما خلع أبوه من قبل. هذا إلى أن الأمير عبد الحليم كان يحسب نظام الوراثة القديم أحق بالعرش من توفيق لأنه أكبر أفراد الأسرة الحاكمة سنا.

ولم يتبدل هذا النظام إلا فى عهد إسماعيل إذ جعل العرض فى ذريته - فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ - فكان توفيق أول من أفاد من النظام الجديد، ولم يكن قبل صدور هذا الفرمان يتطلع إلى العرض، ولا كان معترفا له بالزعامة من أمراء آل بيته، وبخاصة الأميرات، إذ كن ينعين على والدته أنها قينة من جوارى إسماعيل. فهذا المركز القلق من شأنه أن يحرض على الثورة، اضف إلى ذلك أن أعضاء وزارة رياض باشا كانوا مختلفى الرأى والنزعات فى مواجهة الثورة، فكان هذا الموقف وما ينطوى عليه من الاضطراب والتنافس من العوامل التى أعانت على ظهور الثورة ونجاحها.

وثمة أسباب عامة يشترك فيها الشعب بجميع طبقاته، منها أسباب سياسية، وأخرى اقتصادية، وثالثة اجتماعية

الأسباب السياسية

فالأسباب السياسية ترجع إلى تذمر المصريين عامة من سوء نظام الحكم القائم، ورغبتهم فى التخلص منه، فقد كان قوام هذا النظام استبداد الحكام واضطهادهم الأهلين.

لم يكن ثمة عدل ولا قانون، ولا قضاء يتنصف للمظلوم ويعطى كل ذى حق حقه، ولا حرية، ولا مساواة، ولا ضمانات بالكرباج شائعا يتخذه الحكام وسيلة لتحصيل الأموال، أو أداة للقسوة والتعذيب.. حقا إن رياض باشا أمر بإبطاله، ولكن أوامره فى هذا الصدد لم تنفذ تنفيذا تاما، وبقى الكرباج فى كثير من النواحى أداة للحكم، وكانت السخرة مضروبة على البلاد، ولم تكن مقصورة على المنافع والأعمال العامة، بل كانت تستخدم لاستصلاح أطيان ذوى السطلة والجاه من الحكام والأمراء. وكان النفى إلى أقاصى السودان عقوبة يعانيها الكثيرون لمجرد الشبهة أو النكاية. ذكرت جريدة "المونيتور اجبسيان" - الجريدة الرسمية الفرنسية للحكومة - أنه لما ألف شريف كثيرة من المحكوم عليهم بالنفى إلى السودان يطلبون رفع الظلم عنهم، وبلغ عددهم ٩١٢ منفيا، وهو عدد كبير يدلك عليكثرة المظالم التى كان الناس يعانونها قبل الثورة، كان يتقرر نفيهم لمجرد محضر موقع عليه من بعض الأفراد بإتهام أى شخص بأنه خطر، أو لمجرد خطاب من أية سلطة محلية بهذا الإتهام. ولم تكن المظالم مقصورة على طبقة دون أخرى، بل كانت عامة، يعانيها العامة والخاصة، ولم يكن ينجو من شرها إلا من كانت تشملهم رعاية أولى الأمر، على أن هذه الرعاية لم تكن مضمونة البقاء، بل كثيرا ما تنقلب غدرا لغير ما سبب سوى أهواء الطغاة وتقلباتهم.

فالمصريون كانوا إذن يتطلعون إلى التخلص من نظام الحكم القائم، وقد أدركت الطبقة الممتازة من الأمة أن إصلاح هذا النظام إنما يكون بقيام الدستور وإنشاء مجلس نيابى يوطد مبادئ العدل والحرية، ويتحقق فيه معنى الرقابة على الحكم، ويحول دون ارتكاب المظالم. . فيأمن الناس على حقوقهم وعلى حياتهم، ومن هنا اتحدت الطبقة المثقفة من الأمة مع الضباط الوطنيين فى الشعور والميول، واجمع الكل على المطالبة بالمجلس النيابى. فالثورة العرابية كانت من هذه الوجهة ثورة على المظالم، وثورة على الحكم الاستبدادى.

وليس يخفى أن البلاد عرفت شيئا من النظام الدستورى من قبل، إذ أنشئ مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٦ على عهد إسماعيل. ولكنه كان مجلسا لا سلطة له، فلم يكن له أى أثر فى رفع المظالم عن الأهلين، وقد بدأت روح الحياة والمعارضة تظهر بين أعضائه فى أواخر عهد إسماعيل، وتطلعت أفكار الخاصة من النواب والأعيان إلى إصلاح نظامه وتوسيع اختصاصه، وحقق شريف باشا هذه الآمال بوضع دستور على أحدث المبادئ العصرية سنة ١٨٧٩، بوضع دستور على أحدث المبادئ العصرية سنة ١٨٧٩، ولكن الأزمة التى انتهت بخلع الخديو إسماعيل حالت دون إصداره والعمل به.

وبينما كانت الطبقة المثقفة ترتقب إعلان الدستور على يد الخديو توفيق، إذا بهم يرون شريف باشا يستقيل لمعارضة الخديو إياه فى تشكيل مجلس النواب، وإصراره على الحكم المطلق. ورأوا الخديو يؤلف وزارة برياسته، مما ينم عن ميوله الاستبدادية، ثم يكلف رياض باشا تأليف وزارة كان من مبادئها الأساسية حكم البلاد حكما مطلقا، وحرمانها أى نظام دستورى. . حتى

مجلس شورى النواب القديم على ما كـان عليه من ضعف السلطة، فقد ظل معطلا سنتـين، طوال عهد وزارة رياض باشا. ولم ينس الناس مـا كان لهذا المجلس من بعض المواقف الطيـبة فى أواخر عـهد إسمـاعيل، وأنه عطل فى عهد توفيق، فكان لزاما أن يستأنفوا الجهـاد للدستور، وكان طبيعيا إذًا دعاهم داع إلى الثورة أن يلبوا نداءه طائعين مستبشرين. . ويتبين لك من هذه الناحية أن الثورة العرابيـة هى استمرار للحـركة الوطنية التى ظهرت فى أواخـر عهد إسماعيل وامتداد لها.

وكانت سياسة رياض باشا من أسباب ظهور الثورة، فقد استهدف لحركة مقـاومة قوية لما بـدا منه من المعارضة وفى إنشـاء مجلس النواب، وانحـيازه للنفوذ الأوروبى، ولما عرف عنه من الاسـتخفاف بميول الشعب وعـدم اكترائه لآراء الخاصة من الكبراء والأعيان، وإصـراره على قمع كل معارضة بالشدة، واضطهاده للمعـارضين. ومن أمثلة هذا الاضطهاد تجريد الفـريق شاهين باشا كنج وزير الحربيـة السابق من رتبه وألقـابه لاتصاله بالحـزب الوطنى، وتقديم السيد حـسن موسى العقاد للمحاكـمة، ونفيه إلى أقاصى السودان لاعـتراضه على إلغاء قانون المقابلة، ثم اضطهاده للصحف المعارضة لوزارته.

استهدفت الصحف المعارضـة للاضطهاد فى عهد وزارة توفيق باشا، ثم فى عهد وزارة رياض، واستخدمت الحكومة اللائحة القديمة المسماة لائحة أو (نظامنامـه) المطبوعـات لإنذار الصحف أو تعطيـها، فـفى عهـد الوزارة التى رأسها توفيق باشا عطلت الحكومـة جريدة "مرآة الشرق" لمدة شهر. وأنذرت عطلت الحكـومـة جـريدة "مـرآة" الشـرق" لمدة شـــهـر. وأنذرت جـريدة "التجار"، ثم عطلت جريدة "مرآة الشرق" لمدة خمـسة أشهر "لأنها اعتادت

من تلقاء نفسها خرجت فيها عن حدود وظائفها". وفى عهد وزارة رياض باشا أنذرت جريدتا "مصر" و"التجارة" لنشرهما مقالات عدتها الحكومة غير معتدلة تخدش الأذهان، ثم عطلتا تعطيلا نهائيا لإصرارهما على خطة المعارضين.

كانت جريدتا "مصر" و"التجارة" من أقوى صحف المعارضة، تجلت فيهما روح السيد جمال الدين، ولا غرو فصاحبها ومنشئها هو أدب أسحق من خاصة تلاميذ الحكيم الأفغانى، أنشئت الأولى سنة ١٨٧٧ والثانية سنة ١٨٧٨ فى أواخر عهد إسماعيل، وكانتا فى عهد توفيق لا تفتأ كل منهما تنشر المقالات الحماسية وتنتقد سياسة الحكومة وتندد بتفريطها فى حقوق البلاد، فلم تطق وزارة رياض باشا صبرا على مسلكهما وأصدرت قرارها بتعطيلهما تعطيلا نهائيا.

وأنذرت جريدة "مصر الفتاة" لطعنها على الحكومة لمناسبة توسيع اختصاصات الرقيبين الماليين ثم عطلت تعطيلا نهائيا لنشرها مقالات وأخبارا عدتها الحكومة مهيجة للخواطر والأفكار، ومنعت جرائد "النحلة" و"أبو نضارة" ثم "أبو صفارة" و"القاهرة" و"الشرق" من دخول القطر المصرى، وأنذرت جريدة "الإسكندرية" ثم عطلتها شهرا، وعطلت جريدة "المحروسة" لمدة خمسة عشر يوما. ولم يقتصر الاضطهاد على الصحف العربية، بل تناول الصحف الأوروبية، فعطلت جريدة "الريفورم" تعطيلا نهائيا وأغلقت مطبعتها بحجة أنها تنشر مقالات مثيرة للأفكار، وأنذرت جريدة "الفارد الكسندرى".

فالصحف المعارضة، وما كانت تبثه فى الأفكار من روح التبرم بنظام

الحكم والتطلع إلى الحرية والدستور، روح التبرم بنظام الحكم والتطلع إلى الحرية والدستور، وما لقيته من الاضطهاد. كل ذلك كان من الأسباب الممهدة للثورة والمحرضة عليها.

وقد اشتد ساعد الحركة بتأليف جمعية من الناقمين من سياسة رياض باشا، عرفوا بالحزب الوطنى "القديم"، وقد نشروا فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٧٩ أول بيان سياسى لهم، وطبعوا منه عشرين ألف نسخة، وسعى رياض فى معرفة ناشرية لإقصائهم إلى السودان فلم يستطع إلى ذلك سبيلا. ويقول المسيو جون نينيه الذى عاصر حوادث الثورة العرابية: "إن أخفاق رياض فى تعقب ناشرى هذا البيان شجع خصومه على متابعة العمل لإسقاطه، وأن منهم الخديو توفيق ذاته. ومن بينهم الباشوات والأربعة شريف باشا، وإسماعيل راغب باشا، وعم لطفى باشا، وسلطان باشا - وأنهم أوفدوا إلى باريس أديب إسحق لا نشاء جريدة القاهرة - وقد رحل فعلا إلى أوربا بعد إلغاء جريدتيه "مصر" و"التجارة". وأصدر بباريس جريدة معارضة لوزارة رياض، وكانت من أشد الصحف لهجة ضدها، فكانت من أقوى العوامل فى أثارة الأفكار على رياض ووزارته. وتعقبها رياض لمنع تداولها فى مصر، ولكن الباشوات الأربعة كانوا يوزعونها فى أنحاء البلاد.

وتعددت الاجتماعات السرية فى منزل سلطان باشا لتنظيم مقدمتهم سلطان باشا وأحمد عرابى بك وصاحباه عبد العال حلمى وعلى فهمى، ومحمود سامى البارودى باشا وسليمان أباظة باشا - مدير الشرقية - وحسن الشريعى باشا - مدير المنيا - ومحمود فهمى باشا.

ويقول المسيو "جون نينيه": أن الغرض من ضم المديرين إلى الحزب هو

نشر الدعاية له فى الأقاليم، وأن سلطان باشا بوجاهته وثرائه - إذ كان يمتلك نحو ثلاثة عشر ألف فدان من أجود الأطيان - كان يطمع فى رياسة الحزب رغم ضعف أخلاقه ودخيلة نفسه، ولم يكن يتطلع إلى الوزارة لأنه لم يكن كفؤ لها، بل كان يرنو إلى رياسة مجلس النواب.

ويقول عرابى فى مذاكرته عن تأسيس الحزب الوطنى: إنه تألف من لفيف من العظماء والكبراء والعلماء والنبهاء. ويرجع تأليفه إلى التذمر من تغلغل النفوذ الأوربى فى الحكومة - فألف أولئك الكبراء هذا الحزب، وجعلوا مركزه مدينة "حلوان" ونشروا عدة منشورات فى الصحف الفرنسية نصحوا فيها للحكومة بمراعاة مصالح البلاد وأعلنوا عن وجود الحزب الوطنى، وبينوا واجباته وحقوقه، ثم اعترضوا على "الدين الممتاز" واجباته وحقوقه، ثم اعترضوا على "الدين الممتاز" واختصاصه بالضمان وطلبوا المطالب الآتية:

أولا - تعاد النص القاضى بتخصيص السكة الحديدية للقرض الممتاز - فى قانون التصفية - فإن لم يرض بذلك الدائنون من الإنجليز تعين عليهم قبول ذلك الدخل كما هو من غير أن تؤخذ بقية الفائدة المخصصة لهم من الدخل العام.

ثالثا - أن تكون الديون الممتازة والسائرة والمنتظمة دينا واحدا مضمونا بمال الأمة والبلاد بفائدة مقدارها ٤% فى المائة.

رابعا - أن تقام إدارة مراقبة وطنية خاصة مؤقتة يكون فيها ثلاثة من الأجانب تعينهم الدول وتقرهم الحكومة المصرية.

* * *

فرواية عـرابى عن تأسيس الحزب الوطنى لا تخـتلف فى جوهرها عن رواية نينيه. ويقـول عرابى أنه لما علمت الحكومة بوجـود هذا الحزب شددت الرقابة على زعـمائه وهددتهم واضطهدتهم، وكـان الفريق شاهين كـتج باشا وزير الحربية السابق من زعماء هذا الحزب، فـاحتمى بالحماية الإيطالية وغادر مصر إلى إيطاليا فصدر أمر الخديو فى ١٤ يونية سنة ١٨٨٠ بتجريده من رتبه وألقابه ومـحو اسمه من دفـاتر ضباط الجـيش. وبنى الأمر على أنه دخل فى حمـاية دولة أجنبية دون أن يعطـى له إذن بذلك، وإنه سافر من مـصر بدون جواز سفر مستعينا بجواز سـفر حصل عليه من حكومة أجنبية دون أن تعترف به الحكومة المصرية.

يتـبين مما تقـدم أن الحزب الوطنـى كان له أثر كـبيـر فى ظهور الثـورة العرابية، وكـانت بالإسكندرية جمعية أخرى عـرفت بجمعية "مصـر الفتاة" رفعت عريضة إلى الخديو بمطالب الحرية وأنشأت جريدة "مصر الفتاة" للدعوة إلى الحرية وهى الجريدة التى عطلتها الحكومة كما تقدم.

وثمة عامل آخر، يتصل بالأسباب السـياسية، كان له أثره فى التحريض على الثورة، ويعد من مقدماتها، وهو حدوث سابقة للثورة العرابية.. ونعنى بها ثورة الضباط عـلى وزارة نوبار باشا أواخر عهد إسماعـيل فى فبراير سنة ١٨٧٩، فإن تلك الثـورة هى صورة مصغـرة للثورة العرابيـة، إذ قامت على أكتـاف الضباط، وكـان الباعث عليـها شكواهم من تأخيـر مرتبـاتهم وإحالة ٢٥٠٠ منهم إلى الاستيداع، فـذهب نحو ستمائة ضابط منهم يتـبعهم لفيف من طلبة المدرسـة الحربية ونحـو ألفين من الجنود إلى وزارة المالية بحـجة رفع ظلامتهم إلى نوبار بـاشا والسير ريفوس ويلسن وزير الماليـة وقتئذ، فهـجموا

على نوبار باشا واعتدوا عليه بالضرب، وكذلك اعتدوا على السير ريفرس ويلسن، واقتحموا أبواب الوزارة واحتلوا غرفها وقاعاتها وحبسوا نوبار باشا، ورياض باشا - وكان وزيرا للداخلية - والسير ريفرس ويلسن فى إحدى غرف الدور الأعلى. وكانت نتيجة تلك الثورة سقوط وزارة نوبار. فهذا الفوز أحرزه الضباط سنة ١٨٧٩ قد أغرى عرابى وصحبه بالثورة سنة ١٨٨١ .

الأسباب الاقتصادية

لم تكن الحالة الاقتصادية خيرا من الحالة السياسية، بل كانت أدعى منها إلى الثورة. . فالديون التى اقترضها الخديو إسماعيل ألقت على البلاد عبئا جسيما من الأثقال الفادحة، واضطرت الحكومة إلى تخصيص نصف موارد الميزانية لسداد فوائد الديون. فكان ذلك سببا لتذمر الأهلين خاصتهم وعامتهم، لأن تخصيص هذا المبلغ الضخم، الذى يجبى كل عام من عرق الفلاح وكده، معناه حرمان الأهلين ثمرة جهودهم ومتاعبهم، وإضاعتها لحساب الدائنين. . هذا فضلا عن فداحة الضرائب فى مجموعها، وعدم توزيعها توبعا عادلا، واقتضائها بوسائل القهر والإرهاق. فانضم الأهلون إلى الثورة يعوها آملين آن تخفف عنهم أعباء الضرائب. وكان استفحال نفوذ الأجانب عامة. واستحواذهم على مرافق البلاد الاقتصادية، مما دعا إلى تبرم الأهلين بنظام الحكم. . فإن الإمتيازات التى كانوا يتمتعون بها والمزايا التى نالها التجار والمرابون منهم قد أكسبتهم الأموال الطائلة فأثروا على حساب الخزانة المصرية وعلى حساب الأهلين.

وزاد فى تذمر المثقفين والأعيان استسلام الحكومة فى عهد وزارة رياض باشا لمطالب الدائنين وحكوماتهم، فقد أقرت نظام الرقابة الثنائية كما أملاه

القنصلان الإنجليزى والفرنسى، وخولت الرقيبين الأوربيين سلطة واسعة المدى فى شؤون الحكومة المالية، واتسع النفوذ الأوربى داخل الحكومة بواسطة الرقيبين وخارج الحكومة لاستجابتها لمطالب الماليين الأوروبيين، والترخيص لهم باستثمار موارد البلاد ومرافقها الاقتصادية، فانشئت فى عهد وزارة رياض باشا عدة مؤسسات مالية واقتصادية زادت فى طغيان النفوذ الأوربى فى حياة مصر الاقتصادية، كالبنك العقارى - وقد تأسس فى ١٥ فبراير سنة ١٨٨٠ - وشركة تكرير السكر، والشركة العمومية لإجراء الأشغال بالديار المصرية، وشركة المقاولات وغيرها، وكلها شركات أجنبيه برؤوس أموال أوربية، وأعضاؤها من الأوربيين، وعقود تأسيسها التى صدرت بها الأوامر العالية لم تراع فيها مصالح الأهلين فى شىء.. فهذا الإسراف فى رعاية المصالح ورؤوس الأموال الأوروبية، وتمكينها من التغلغل فى كيان البلاد المالى والاقتصادى، كل ذلك كان له أثره فى تبرم الناس بالوزارة، فضلا عن أنه كان فى ذاته عملا غير صالح ولا يتفق والروح القومية.

وزاد الأعيان سخطا على الوزارة إلغاؤها "قانون المقابلة" فانضموا إلى صفوف المعارضة، ذلك أن أبطال ما كان يقضى به هذا القانون من أعفائهم من نصف المربوط على أطيانهم من الضرائب، فيه ضياع أموالهم التى أدوها للحكومة مقابل هذا الإعفاء. وقد كان أكثر الأعيان بذلك مظلمة إلى لجنة التصفية نشرها فى جريدة "الريفورم" ووصف فيها هذا العمل بأنه استبداد، وأبان أن قانون المقابلة وما احتواه من المزايا لدافعى الضرائب مقدما هو عقد لا يجوز نقضه من جانب الحكومة وحدها، وأن الأهالى قد احتملوا شدائد كثيرة فى أداء المقابلة، وباعوا فى هذا السبيل مصوغاتهم وأملاكهم، واستدانوا

الديون الفادحة فكان لزاما على الحكومة أن ترد جميع ما أداه المالكون إلى أصحابه، بحيث لا يسرى مرسوم الإلغاء إلا بعد رد ما أخذته الحكومة. فرأى رياض باشا أن فى تقديم هذه المظلمة إلى لجنة التصفية ونشرها فى جريدة "الريفروم" معنى التشهير بالحكومة وإثارة الأفكار عليها، وبخاصة لأن العقاد دعا الأهالى إلى توقيع غرائض بهذا المعنى، فأمر بالقبض عليه وقدمه للمحاكمة، فحكم عليه مجلس مصر الإبتدائى بالحبس سنتين. وشدد المجلس الاستئنافى هذا الحكم، فزاده إلى خمس سنوات. ولم تكف الحكومة بذلك، بل قضى "مجلس الأحكام" بنفيه إلى فازوغلى.. ولم يفرج عنه إلا فى عهد وزارة شريف باشا بعد إنشاء مجلس النواب. يضاف إلى ذلك صدور قانون التصفية - يوليه سنة ١٨٨٠ - فقد ظهر فيه ظهر فيه من التحيز للدائنين الأجانب والأجحاف بالأهلين، ما زاد الناس كرها لوزارة رياض باشا، وزاد الأعيان والملاك سخطا عليها لما فرضته عليهم من زيادة ضريبة العشر على أطيانهم.

ومن مظاهر سياسة الحكومة الاقتصادية انقاص عدد الجيش توفيرا للنفقات.. وهذا النقص كان له سبب آخر يتصل بالحالة السياسية، وهو صدور الفرمان السلطانى لتوفيق باشا على إنقاص عدد الجيش العامل إلى ١٨ ألف جندى. ولكن السبب الاقتصادى كان له أكبر الأثر فى هذا النقص، لأن عدد الجيش نقص إلى اثنى عشر ألفًا أى إلى أقل مما حدده الفرمان السلطانى، وقد استتبع هذا الضيق المالى. ولم تعن الحكومة بتدبير وظائف لهم تعوضهم عما نقص من رواتبهم، فانضموا بطبيعة الحال إلى الناقمين وشارك الموظفون ضباط الجيش فى شعورهم، إذ رأوا من مظاهر اتساع الرقيبيين الأوربيين ما

يثير فى نفوسهم روح السخط والتبرم، وأهم هذه النظاهر ازدياد نفوذ الموظفين الأوربيين فى دور الحكومة، وزيادة عددهم، وتمييزهم بالمرتبات الضخمة. . فاستاء لذلك الموظفون الوطنيون.

وخلاصة ما تقدم أن الثورة العرابية هى من الوجهة السياسية ثورة على الاستبداد والمظالم، ومن الوجهة الاقتصادية ثورة على التدخل الأوربى فى شؤون مصر المالية وعلى النظم الاقتصادية التى كانت تعانيها البلاد قبل الثورة.

الأسباب الاجتماعية

أن حالة المجتمع المصرى كانت تؤهله بلا مراء - عند أول دعوة - لتلبية نداء الحرية والثورة. . وذلك بفضل انتشار التعليم من عهد محمد على الكبير، فالمدارس التى أسسها، والبعثات العلمية التى أوفدها إلى الخارج، قد خرجت طبقة مثقفة نالت حظا موفرا من العلوم، وليس يخفى أن العلم من شأنه أن يهذب النفوس وينير البصائر، وينهض بالعقول والأفكار، ويسمو بها إلى التماس الرقى والتقدم، ويعرفها معانى الحرية والمساواة والحقوق الإنسانية، ويهيب بها إلى محاكاة الأمم الحرة فى الثورة على الاستبداد فالنهضة العلمية كان لها فضل لا ينكر فى توجيه أنظار المثقفين إلى التبرم بالاستبداد والتطلع إلى الحرية والدستور.

واقترنت النهضة العلمية بنهضة فى الأدب، قوامها الشعراء والكتاب من أدباء ذلك العصر، والأدب بما يطبع فى نفس الأديب من التطلع إلى المثل العليا يمهد للنهضات الوطنية ويغذيها، ويحدو الأمم إلى الاستمساك بالحرية والكرامة الإنسانية، والنفور من الذل وإباء الضيم والمهانة. .

فالعلوم والآداب كـان لها أثرها فى تمهـيد الأفكار لقبـول الثورة، وفى الدعاية لها. وقد كان لقصائد الشعـراء ومقالات الأبداء وما كان يلقيه الخطباء فى المحافل والمجتمعات أثر كبير فى التحريض على الثورة.

وكانت الصـحافة من العـوامل الثقوية فى ترقـية الأفكار بما تكتب عن الشؤون العامة فى مصر والخارج، وما تنشر من المقالات عن مختلف الأحوال السياسية والاجتماعية، ومـا تحوى من التنويه بالأعمال النافعة وانتقاد الأعمال الضارة.. فكان لها فضل كبير فى تفـتيح أذهان الناس، وتبصيرهم بالحقائق، وتهذيبهم وتثقيفهم، وكان لصحف المعارضة أثرها فى إحراج مركز الحكومة، وتبرم الناس بها، وقـد استهدفت هذه الصحف للإنذار والتعطيـل كما تقدم، فكان الاضطهـاد يكسـبهـا عطف الناس ويزيدهم تعلقـا بهـا وتأييدا لآرائهـا وأفكارها الحرة.

ويتصل بالأسـباب الاجتمـاعية تأثير السـيد جمال الدين الأفـغانى فى المجتمع المصرى، فقد ظهرت على يده بيئة استضاءت بأنوار العرفان، وارتوت من ينابيع العلم والحـكمة، وتحـررت عقـولهـا من قيـود الجمـود والأوهام. وبفـضله خطا فن الكتابة والخطابة فـى مصر خـطوات واسعـة، ولم تقتـصر حلقات دروسـه ومجلسه على طلبـة العلم، بل كان يؤمهـا كثيـر من العلماء والموظفين والأعيان. وكان يحمل بين جنبيه روحـا كبيرة، ونفسا قوية، تزينها صفات وأخلاق عالية، فأخذ يبث فى النفوس روح العزة والشهامة. ويحارب روح الذلة والاستكانة. وكان بنفـسيته ودروسه وأحاديثه ومنـاهجه فى الحياة، مدرسة أخلاقـية رفعت من مستوى النفـوس، وكانت على الزمن من العوامل الفعالة للتحول الذى بدا على الأمة، وانتـقالها من حالة الخضوع والاستكانة، إلى التطلع للحرية والتبرم بنظام الحكم القديم ومساوئه، والسخط على تدخل الدول فى شؤون البلاد.

ولئن نفى جمال الدين من مصر فى أوائل حكم توفيق، فان روحه ومبادئه وتعاليمه تركت أثرها فى المجتمع المصرى، وهيأته للثورة، ولا غرو فكثير من أقطابها هم من تلاميذه أو مريديه أو المتأثرين بتعاليمه، ولو بقى فى مصر حين نشوب الثورة لكان جائزا أن يمدها بآرائه الحكيمة وتجاربه الرشيدة، فلا يغلب عليها الخطل والشطط. ولكن شاءت الأقدار والدسائس الإنجليزية أن ينفى السيد من مصر، وهى أحوج ما تكون إلى الانتفاع بحكمته وصدق نظره فى الأمور.

عرابى يتزعم الجيش

كان ضباط الجيش يتطلعون إلى رجل منهم يتولى زعامتهم وتوحيد كلمتهم للمطالبة بحقوقهم المشروعة.. فوجدوا فى عرابى ذلك الزعيم، ولقد كانت صفات الزعامة متوافرة فيه بالنسبة للظروف التى عاصرها، فقد كان ذا شخصية قوية جذابة تؤثر فيمن حوله وتجتذبهم إليه، وهذه أولى صفات الزعامة، كانت أقواله تقع من نفوس الضباط والسامعين موقع الإقناع، وهذا مظهر لقوة شخصيته، ولولا أنه ذو شخصيته كبيرة قوية لما استطاع أن يجمع الجيش وضباطه على محبته، والانضواء تحت لوائه، والائتمار بأوامره.

ويمكن تحديد سنة ١٨٨١ لبدء زعامته العسكرية على معظم ضباط الجيش.. فى هذه السنة كان عثمان رفقى باشا يتولى وزارة الحربية، وكان وحده من أسباب ظهور الثورة العرابية، وآخر ما وقع منه - مما عجل بالثورة - أنه أصدر أمرا بنقل الأميرالاى عبد العال حلمى حشيش بك - أحد زعماء الثورة فيما بعد - قائد ألاى طره إلى ديون الجهادية (وزارة الحربية) وجعله معاونا خورشيد نعمان بك بدله، وهو من أصل شركسى. وأصدر أمرا آخر

بفصل أحمد عبد الغفار بك فالمقام ألاى الفرسان، وعين بدله ضابطا شركسيا.

علم عرابى بهذه الأوامر فى ١٦ يناير سنة ١٨٨١ قبل نشرها، فثار لها، وقال لمن أبلغه نبأ هذه الأوامر: "إن هذه لقمة كبيرة لا يقوى عثمان رفقى على هضمها"، وذهب إلى داره ساخطا محنقا، فألقى كثيرا من الضباط ينتظرونه ليتشاوروا معه فيما يجب عمله، إذ كانوا قد بلغهم أيضا نبأ تلك الأوامر، فأخذوا يتداولون البحث فى الموقف، فاتفقت كلمتهم على اختيار عرابى رئيسا لهم، وعهدوا إليه فى العمل للتخلص من هذه الحالة، وقرروا أنهم يتضامنون معه يفدونه ويفدون الوطن بأرواحهم، واتفقوا على كتابة عريضة إلى رياض باشا يطلبون فيها عزل وزير الحربية عثمان رفقى باشا .

***